بيئة الاندلس : ج ١

المحاضرة الثانية : للدراسات العليا

ماجستير /الأدب

للعام الدراسي:٢٠٢٤-٢٠٢٥م

الاستاذ الدكتور لؤي صيهود التميمي

بيئة الأندلس:

تقع شبه الجزيرة الايبيرية موقعا فريداً بين القارتين الأوربية و الأفريقية و تمتد بين الجبال و البحار نزلها العرب نزول الفاتحين فكانت المرحلة الأولى مرحلة الغزو و الاستيلاء ثم كان العهد الأموي فاطمأنّت البلاد الى جيش يحمي برها وبحرها فراح الأمراء و الخلفاء ينشئون في قرطبة مدنيّة تشبه مدنيّة دمشق و تنافس كبرياء بغداد و أما إشبيلية فقد أصبحت ابرز موطن للإشعاع الفكري و العمل السياسي و كذلك غرناطة التي ازدهرت في عهد ملوك الطوائف، نجد في الأندلس الى جانب القصور و الأبنية الفخمة و الى جانب الزخرفة البالغة، هناك عدد كبير من البرك و الرياض الأنيقة و الأودية المتحولة الى متنزهات ساحرة و هناك وادي الطلح و وادي العروس قرب إشبيلية، و السدود والنواعير و الفوارات المتألقة بألف ضوء و الف مصباح و القناطر التي تتزاحم المياه فيها فأصبحت الأندلس ميداناً واسعاً للعيش الرخي، و كذلك إنتقلت الموسيقى مع العرب الى الأندلس و إنَّ (زرياب) خير من مثل ذلك الانتقال و أنشأ مدرسة أصبحت معهداً كبيراً للموسيقى الأندلسية ثم تبعتها مدارس أخرى في إشبيلية و طليطلة و غرناطة و يتلوه أبو القاسم عباس بن فرناس ت (٨٨٨) هـ و له الفضل الأكبر في إدخال الموسيقى الشرقية الى إسبانيا، هذه كلها لها دور في انتشار الثقافة في الأندلس و عزْزها الحكام و عملوا على انشاء المعاهد العلمية و ساعدوا على نقل ما صُنّف في الشرق العباسي و نشرهُ في الغرب.

فنشأ الأدب في الأندلس ولا سيما الشعر فأنه كان مع الموسيقى من أشد وسائل التنفس الحياتي و الحضاري فكانت المرحلة الأولى للأدب العربي في الأندلس هي مرحلة انتقال الأدب المشرقي الى المغرب من غير تبديل أو تعديل فالأغراض و الأساليب كما هي و ذلك ان الأدباء الأولين هم ممن ولدوا و نشأوا في المشرق ثم انتقلوا الى الأندلس مع الفاتحين أو بعده بقليل، و كذلك الحكام الأولين كانوا شديدي التطلع الى الشرق لمنافسة بني العباس في بغداد فكانوا يشجعون على تقليد المشارقة، بالإضافة الى أن الثقافة الأدبية في الأندلس كانت استيحاءً لأدب المشرق, و كانوا الحكام و الخلفاء يعملون على استخدام اسباب العلم و الأدب من بغداد و الحجاز كأبي علي القالي و صاعد اللغوي، و كان للقيان و المغنيات فضل كبير في نشر الأدب المشرقي فأبتاع أمراء الأندلس و حكامها عدداً كبيراً منهنَّ مثل العجفاء و فَضل و علِم و قمر و زرياب و إبنتيه عُلية و حمدونة و جاريتيه غزلان و هُنيدة و غُلامهُ متعه الذين حملوا الى الأندلس أروع الألحان و أجمل الشعر.

لكن هذا التأثير المشرقي أخذ يتضاءل شيئاً فشيئاً منذ القرن الحادي عشر و ذلك لنبوغ عدد كبير من أبناء الأندلس في الشعر و الموسيقى و إن أهم ما اهتم به الشعراء الطبيعة و المرأة و الخمرة و توقف بعضهم عند الطبيعة توقف العاشق أمام المعشوق و إتخذها بعضهم الآخر للهوهم يتناغم و أحوالهم النفسية فكان الشاعر الأندلسي يصف الزخارف و القصور و الصور و الألوان، و شاع التشخيص في الشعر الأندلسي حتى تظن ان في الطبيعة مجتمعاً الى جانب المجتمع البشري، فكان الشعر في الأندلس لغة الحياة.

يقول أبن حصن في النيلوفر :

كُلَّما أقبلَ الظلامُ عليهِ غمَّضَتْ أنجمُ السّمَا عَينيْهِ (١)

فإذا عادَ للصباحِ ضياءٌ عادَ روحُ الحياة مِنهُ إليهِ

كذلك نلمس في الشعر الأندلسي انه فيه التصاق المرأة بالطبيعة، فنجد المرأة ذات صلة وثيقة بكل مظهر من مظاهر الجمال في الجنائن و جداول الماء، و قلما نجد أن يذكر الشاعر حجراً كريماً أو زهرة جميلة

ولا يشبهها بثغرٍ خد أو عينٍ و ان الألوان الأحمر و الأصفر منها تشير الى حالات العاشق و المعشوق فالأصفر يشير الى المحب الولهان الذي ذاب نحولاً و ارقاً وعبَّر لونهُ الشاحب عن قلقهِ الدائم، و الأحمر يرمز الى الفتاة التي تلذ بتعذيب الحبيب كما يشير جعفر بن محمد المصحفي يصف سفرجلة :

١ـ تاريخ الأدب العربي : حنا الفاخوري. ص٩٤٣

ومصـفرةٍ تختـالُ فـي ثـوبِ نرجـسٍ وتعبـقُ عـن مسـكٍ ذكـيّ التنفسِ (٢)

لهـا ريـحُ محبـوبٍ وقـوة قلبـهِ ولـونُ محـبّ حلّـة السُّـقُمِ مُكتَسـي

فصــفرتها مـن صـفرتي مسـتعارةٌ وانفاسُها في الطيبِ انفاسُ مؤنسٍ

و كانت الموسيقى عنصر ضروري من عناصر الحياة الأندلسية فكان شعرهم لا يُفهم بمعزلٍ عن اللحن و تعاطى بعضهم فن الموسيقى فألفوا فيه كما فعل أبن باحة و كان أبو عبدالله بس الحداد يرى في الشعر غير النغم القائم على المدّات و السكنات فكان يرى فيه موسيقى حقيقية فصّل في عناصرها في كتب شهيرة. فكانت القصيدة قطعة موسيقية تعمل على اثارة العاطفة و الشعور.

---

٢ - **الجامع في تاريخ الأدب العربي. حنا الفاخوري. ص٩٤٥**